

نافذة في المنزل المغربي

قصص قصيرة • سعدي يوسف

نافذة
في المنزل المغربي

سعدي يوسف

نافذة

في المنزل المغربي

قصص من هناك

دار ابن رشد

أيار — ١٩٧٩

١

ليلتين تُركتُ وحيداً ،
أضمُّ الظلامَ على جسميَ المتشنج .
فكّرتُ : في أي ضاحيةٍ كنتُ ملقىً ؟
لقد غادروني
ولم يتركوا غير ميسمهم في ضلوعي .
وبُقيا سجائرهمْ .
إن منزل ِبنْ َبرْكةَ الآن منكشفٌ ،
تلمسُ الريحُ والغرباءُ نوافذه الساكنهْ .

سعدي يوسف

حانة لامبيانس

كان ضحى ربيعي غريب ينتشر في شوارع المدينة ، وفي السماء الـتي لا يلمح فيها سوى قطع صغيرة من غيوم بيض عالية جدا . . . اما جبل « تسالة » الغائم عادة ، فيبدو شديد الوضوح ، حتى ليتخيل المرء ـــ دون جهد ـــ ممراته الضيقة ، المحفوفة باشـــجار الصنوبر والعفص . . . حتى الاشـــجار الجرداء المتشققة اللحاء في الشارع الذي يصل بين وسط المدينة وثكنات الدرك الوطني ، تبدو وكأنها سوف تتفتق فجأة عن براعم خضر ذات زغب ابيض .

كان يوم اربعاء .

ازحت ستائر الحبال المنظومة خرزا من البلاستيك الملون ، ودخلت « لاميانس » ، مخلفا ورائي ، للحظة قصيرة ، الصوت اللدن لارتطام الخرز ببعضها ، وجلست في ركن من الحانة ، ثم طلبت ربع زجاجة من النبيذ الوردي . واخرجت كتابا .

يوسف كان وحده .

حين جلس معي ، بعد ان وضع الزجاجة والكأس ، ابتسم (وجه نحيل مثلث حليق) ، وفتح الزجاجة (اصابعه طويله معروقة) ، وادناها مني (كماه نظيفان ومتآكلان) ، نظرت اليه (عيناه صغيرتان لامعتان) ، وصببت له كأسا صغيرا (قميصه قطني ذو مربعات) .

قال لي : لا اشرب . شكرا .

– بيرة . . شيئا اخر .

– لا اشرب ابدا . . لا اشرب اي كحول .

كان النبيذ البارد ذا مذاق اقرب الى الحلاوة . احسست بعد ان اتممت شرب الكأس الاولى انني بحاجة حقيقية الى كأس ثانية

قال يوسف : ماذا تقرأ ؟

قلت : احاول قراءة كتاب باللغة الفرنسية .

– ونحن نريد ان نتعلم العربية .

صببت لي كأسا ثانية. كان يوسف يراقبني مبتسما .

قال : انك لا تخفي شيئاً .

– لانني اعرف اشياء كثيرة .

– هل تعرفني ؟

– نعم .

- من حدثك عني ؟
- كثيرون .
- سمعت انك تكتب . .
- قليلا .
- ستزورني اذن ؟

★

اطلقت عجوز اسبانية جالسة على مقعد في الساحة المواجهة لقصر العدل صرخة حادة ، واختطفت سلتها الخيزران الفارغة ، مندفعة نحو شبكة الازقة التي تصل بين الساحة والبوليفار المحاذي لعمارة دي لاتر دي تاسيني البعيدة ، وهي تتمتم في شبه تشنج : القنابل ا القنابل ا

بينما مزقت انفجارات اخرى زجاج السيارات الواقفة في الشارع المحاذي لمقهى الكاميرون . وانطلق من أعلى المسرح البلدي صوت صفارة الانذار . في حين اندفعت سيارتان للاسعاف وهما تطلقان ابواقهما الموحشة . ومن ناحية الثكنات قرب الحديقة العامة ، جاءت ناقلتا جنود وسيارة اسعاف . كان يوم احد .

وفي مقهى الكاميرون المزدحم ينتظر الاوربيون نتائج اليانصيب الكبير بين كؤوس الريكار والرقصات السريعة التي تتخلل هذه الكؤوس . وفي الجهة المقابلة ، في وسط المدينة تماما ، يرتفع على جدار عال شعار منظمة الجيش السري الفرنسية ، بحروف ضخمة : ORGANISATION AVENIR STABILITE في واحدة من هذه اللحظات ، انفجرت السلة الموضوعة أسفل الكونتوار ، في مقهى الكاميرون . وتطايرت عشرات القناني والالواح ومصابيح الثريات شظايا مسنونة ملأت المقهى بركام من الاجساد والملابس الممزقة والمحترقة ، بينما ظل الحاكي وحده يكرر مقطعا اخيرا من موسيقى راقصة .

في البارات والساحة المجاورة انبطح الناس ارضا .

وفي الساحة المواجهة لقصر العدل حيث تقف الدراجات الهوائية في صف مستقيم ، مثل اسلاك شائكة ذات عمق ، اندفعت دراجة متجهة الى الساحة المؤدية الى طريق سفيزف وبوحنيفية . وكان فوقها فتى جزائري نحيل .

— انه هو . . انه هو . .

سيارة الاطفاء تقتحم الجمع الذاهل ، المحتشد الان حول مقهى الكاميرون الذي يلفه الدخان ، وينزل رجال مسرعون من سيارتي الاسعاف فاتحين البابين الخلفيين ، ويهبط جنود الفرقة الاجنبية قافزين من الناقلتين مدججين بالسلاح ، ويسيطرون في خطة مرسومة على المنطقة الممتدة بين وسط المدينة ومرقص الاميركان .

— انه هو . . انه هو . .

عشرات الايدي تشير باتجاه الساحة المؤدية الى طريق سفيزف وبوحنيفية ، حيث اندفعت الدراجة الهوائية قبل قليل . .

احدى سيارتي الاسعاف تبتعد عن « الكاميرون » وهي تطلق انينها المتقطع المفضوح ، وجنود الفرقة الاجنبية يدققون هويات الناس.. في حين تسرع سيدة فرنسية وراء كلبها الذي يقطع الشارع نحو السوق المركزي ، وهو يتلفت .

□

بين السوق المركزي ودار البلدية تقع حانة « لامبيانس » ، وبالضبط في الفرع الثاني قبل دار البلدية بالنسبة للقادم من السوق . تفتح الحانة منذ الصباح الباكر لتقدم القهوة والحليب وخبز الاهلة ، او كؤوسا صغيرة من النبيذ الاحمر لزائري الصباح المعتادين . وبين الثامنة والثانية عشرة تقفر الحانة الا من متشرد او اثنين ، او جندي سابق في جيش التحرير ، او فلاح جاء المدينة من

المزارع القريبة . اما الفجري الذي يطوف المدينة بائعا اللوز المملح فيتخذها محطة استراحة ثابتة يشرب فيها كل ظهيرة ، زجاجة بيرة متوسطة . وبين الثانية عشرة ظهرا والثانية تزدحم الحانة بالمتعجلين ممن يشربون على دفعة واحدة كأسا او كأسين من النبيذ او الريكار او عرق الكريستال ، او زجاجة البيرة الصغيرة التي تملأ كأسا واحدة بالتمام . في هذا الوقت القصير المخصص للغداء والاستراحة قبل الشوط الثاني للعمل .

وفي المساء ، ابتداء من السادسة ، يقدم السردين المشوي مع النبيذ والريكار والكريستال والبيرة . سردينتان لكل كأس ، وتشتعل الاضواء في واجهة الحانة وداخلها ، وتتعالى الاغنيات المسجلة . . وبمتلىء الجو برائحة الدخان والصوف ، فالفلاحون وجنود جيش التحرير السابقون ذوو البرانس الخشنة وغطاءات الرأس الضيقة هم الزبائن الاكثر ثباتا وان كانوا الاقل انفاقا . . كما تضفي رائحة السردين المشوي وشبكة الصيد التي تتدلى منها اغلفة الاسطوانات الفارغة فوق صف القناني الطويل جوا من الرطوبة البحرية الكثيفة ، في مدينة تبعد ٨٠ كيلومترا عن البحر .

ان رواد الحانة يبدون غرباء على الاثاث والديكور الخشبي الثقيل هنا : المقاعد الطويلة الثابتة ، والموائد العريضة المستقرة والجدران المكسوة بخشب من لون المقاعد والموائد ، والثريات الخشبية الضخمة التي تتدلى منها المصابيح . . الكونتوار وحده – حيث يزدحم الرواد – هو الجزء الاكثر ملاءمة لهم في « لامبيانس » ، اذ يمتد من مدخل الحانة مباشرة حتى الباب الداخلي المؤدي الى باحة صغيرة ملحقة ، محتلا ثلث مساحة الحانة تقريباً ، مما يضمن للرواد حرية الحركة ، وللحانة قدرا من الاستيعاب يعوض عن ثلثي المساحة اللذين تحتلهما الموائد المستقرة الثلاث والمقاعد الطويلة المحدودة التي تجاورها بشكل متواز .

وراء الكونتوار يقف يوسف دائما يبتسم ، ويتحدث قليلا ، ويدير الالة الحاسبة . وامام يوسف يقف، كل مساء الفلاحون وجنود جيش التحرير السابقون . يقفون كل ليلة بالعشرات ، ويختفون بالعشرات في الشوارع المعتمة والطرق الريفية ، صاخبين او صامتين ، متحصنين ببرانسهم وجلود وجوههم الخشنة ، ملقين على يوسف تحية اخيرة ، ونظرة اعتذار متبادل ، متفاهم عليها مسبقاً . وحين يختفي اخرهم متعثرا في الضوء المتضائل خارج الحانة يتنهد يوسف ، ويصب لنفسه قدحا صغيرا اخر من الماء المعدني ، ثم يبدأ بتوزيع الدخل ، بينما يتابع رجلان تنظيف الكونتوار والارضية الملاصقة لـــه من البقايا الدقيقة للسردين المشوي واعقاب السجائر والثقاب .

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يطفيء يوسف اضواء (لامبيانس) ، ويختفي هو ايضا في منعطف الفرع ، بين صيدلية علال ووكالة شركة فيليبس ، متجهاً الى منزله ، صامت الخطى ، نحيلا ، مثل قط حذر .

□

بعد اقل من ثلاثة كيلو مترات من الساحة المؤدية الى طريق سفيزف وبوحنيفية ، يختفي اخر عمارات المدينة ، ويظهر الريف فجأة ، واسعا ، متراميا ، لا نهائياً .

ان منطقة التلال المتموجة تبدأ هنا بمرتفع بسيط لا يكاد المرء يحسه ، ولكنه يفصل في الواقع ، المدينة عن الريف .

كان يوسف قد ترك دراجته الهوائية خلف مرآب مهمل لتصليح الآلات الزراعية ، وحاد عن الطريق المعبد الى حيث حقول القمح المسنبل العالي المتأرجح بوقار تحت ريح خفيفة .

كانت ساقاه تؤلمانه

وفي الدورات الاخيرة لعجلتي الدراجة احس ان ساقيه منفصلتان تماماً عن ارادته ، وكان عرق بارد لزج يتجمع بين قدميه وباطن حذائه حتى ظن ان حذاءه سينزلق ويسقط . كانت ساقاه قطعتي لحم مستطيلتين تتدليان الى جانبي الدراجة دون نبض او استجابة .

لو تأخر الانفجار خمس دقائق فقط ، لما امكن لتلك العجوز الاسبانية ان تشير الى دراجته المبتعدة :

ـــ انه هو . . انه . .

بل لما احتاج الى الدراجة نفسها ، كان بامكانه ـ لو تم الأمر كما اراد ـ ان يبلغ في تلك الدقائق الخمس الحي العربي ، وان يدخل اول دار او اخر دار ، يبقى فيها ما يشاء حتى تدبر امره الجبهة . هذه الدراجة الملقاة هي السبب في المشكلة كلها ، كان يستطيع ان يحمل السلة بيده ، ويضعها في المكان المقرر من مقهى الكاميرون قبل خمس دقائق من الانفجار او حتى اقل ، لكن العجلة الخلفية كانت تحتاج الى نفخ . العجلة الخلفية في الحقيقة هي السبب .

بلغ يوسف حدود الارض اللامنتهية المتماوجة بالسنابل ذات الابر السود الهشة . كانت موجة دخانية السواد تتحرك على ارضية صفراء من السيقان الملتحمة العالية . . ومن وراء المرتفع اليسير الفاصل بين سهل المدينة والاراضي المتموجة التي تحتضن يوسف الان ، سمع هدير السيارات العسكرية . القى يوسف بنفسه على الارض التي تغطيها السنابل العالية ، وسمع دقات قلبه عنيفة متلاحقة حتى لقد خشي ان يسمعها احد . ولاول مرة شعر بالعطش يخز حلقه المتخشب . وزحف منبطحا الى اعماق السنابل .

مرقت ثلاث سيارات عسكرية .

واستدل من طبيعة صوت هذه السيارات انها ستسير مسافة ابعد . كانت الشمس حادة باهرة ، وكانت الارض التي وضع عليها وجهه حارة ذات رائحة نفاذة تملأ انفه ، وتتسلل الى رأسه مثل شـاي الاعشاب الدافيء . احس بهدوء غير مفاجيء ، واستطاع ريقه ان يبلل حلقه قليلا .

وابعد عن نفسه فكرة نوم بعيدة .

□

في المساء المبكر الممطر تتضوع حانة (لاميانس) برائحة الخشب والقهوة ، قبل ان تغمر رائحة السردين المشوي والصوف سحب الدخان المعلقة بين رؤوس الزبائن والسقف. هذه السحب التي تتجه ببطء ، نحو مسرب الباب الموارب ، بين الحانة والباحة الداخلية .

كان يوسف وحده .

اعتدلت على كرسي عال دون مسند ، معتمدا بمرفق على الكونتوار وطلبت زجاجة بيرة صغيرة ، ابتسم يوسف ، وهو يفتح الزجاجة ويدنيها مني :

– لم يحن وقت السردين بعد .

– شكراً .

فجأة ، غادر يوسف مكانه وراء الكونتوار ، مقترباً من الباب الخارجي :

– مرحباً .. مرحباً .. سي محمود .

جلس سي محمود الى جانبي ، على كرسـي عال اخر ، وانزل بحركة بطيئة قلنسوة برنسه ، كاشفاً كومة من الشعر الجعد المضطرب ، والتفت الي :

– لا بأس .

– لا بأس .

صب يوسف كأس قهوة كبيرة ، وقدمه الى سي محمود :

– كيف حالك سي محمود ؟

– لا بأس .

– والثلاجة ؟

– [illegible]

– كنت في السجن تحن اليها . إني أتذكر ذلك .

– لأني كنت في السجن .

– والآن ؟

– لقد تعلمت . علمني الذين لم يكونوا في السجن .

صب يوسف لنفسه قدحا من الماء المعدني ، وشرب نصفه مسرعا ، ثم اقترب برأسه من سي محمود :

– أتدخن ؟

– لا . لقد تركت .

– لماذا ؟

– اردت ان ادخل اخي الى الثانوية .

– أهو في الثانوية الآن ؟

– لم يقبل .

– لماذا ؟

– دبرت ثمن الكتب ، ولم ادبر ثمن الملابس . انهم يريدون لانفسهم كل شيء !

– من ؟

– الاشتراكيون .

□

سيارات عسكرية اخرى تندفع في الشارع الواسع الذي يشق حقول القمح

المتموجة ، وناقلة جنود تتوقف ويهبط منها عـدد من افراد الفرقة الأجنبية ثم ينتشرون في المنطقة بحذر .

كانت المسافة الجديدة التي قطعها يوسف زحفا داخل حقول القمح قد ابعدته كثيرا عن الشارع ، الا انها منعته في الوقت نفسه من رؤية الشارع بوضوح . رفع رأسه لحظة ، ونظر . كان عدد من جنود الفرقة الاجنبية يسيرون في درب ريفي ضيق صاعد ، يؤدي الى غابة بعيدة ، بينما سار عدد آخر منهم في طريق يخترق حقول القمح ويؤدي الى بناية مزرعة يحدها مربع واسع من اشجار الصفصاف . . جماعة اخرى تتجه الى المرأب المهجور حيث ترك دراجته الهوائية .

لو كان يملك سلاحاً لاختلف الامر .

لقد رفضت الجبهة اعطاءه سلاحا وكررت رفضها : انك في الخامسة عشرة يا يوسف . لكن هؤلاء الجنود الذين يبحثون عنه متأكدون من انه يحمل سلاحاً .

قبل اسبوع فقط ، حين نسف الجسر بين « سيدي الحسن » و « الامطار » دارت معركة استمرت ثلاث ساعات كاملة .

وربما كان بين هؤلاء الجنود من اشترك في تلك المعركة .

العطش يهجم من جديد على حلق يوسف . حاول ان يجد شيئاً يبل الريق ، فاحس بتمزق في حلقه .

ونظر بين الثغرات الضئيلة التي تفصل سيقان القمح عن بعضها . لم يكن هناك من شيء أخضر ، فلقد خشبت الشمس كل شيء . واستطاع اخيراً ان ينتزع نبتة دقيقة تكاد تغور في الارض مختلطة بجذور القمح . واخذ يعلكها مطبقاً عليها فمه . كان طعمها لاذعا تشوبه المرارة ولكن فيها بقية من ماء مختزن .

رفع رأسه مرة اخرى .

جماعة من الجنود تدخل حقل القمح .
عاود يوسف الزحف مبتعداً عن موضعه .
تتوقف الجماعة .

السيارات العسكرية تندفع في الشارع الواسع عائدة الى المدينة ، وناقلة الجنود تمتليء ، وتعود هي الاخري الى المدينة .

وحينما رفع يوسف رأسه بحذر أقل ، رأى الشارع نظيفاً ، لامعا في البعيد ، ورأى اشجار التوت المنتظمة على جانبيه ، وارتجف قليلا وهو يتذكر ظلالها الباردة ومطرها الاحمر والاسود والابيض في اوائل الصيف .

كل شيء صامت حول يوسف
حتى الشارع ، البعيد الان . لم تمر به سيارة .
وسيقان القمح التي اعتاد حركتها الخفية ، ثابتة امام عينيه الان .
والسماء زرقاء بشكل عجيب .
ويرهف سمعه .
كان الهدير الخفي قادما من الأعالي خفيا وواثقا .
انها الهليكوبتر !

□

جاءت المرأة ضحى .

أزاحت ستائر الخرز بعنف غير مقصود ، ووقفت بين الكتوار واحدى الموائد الفارغة ، كانت ترتدي العباءة البيضاء ، وتبدي احدى عينيها فقط .

وضعت يدها على المائدة الفارغة وسألتني :
ـ أأنت من الكانتينة ؟
ـ لا .

– اين مولاها ؟

– سيأتي بعد ساعة .

– قل له جاءت فاطمة زوجة سي البكاي .

بالسلامة .

– بالسلامة .

وسمعت مرة اخرى الصوت اللدن لارتطام الخـــرز ببعضها ، واختفت العباءة البيضاء بسرعة لم أتوقعها . وفي داخلها المرأة التي جاءت تسأل عن يوسف . .

فاطمة زوجة سي البكاي .

حين عـاد يوسف من دار البلديه بعـد ان دفع بدل ايجار « لامبيانس » جلس الى جانبي على المقعد الطويل صامتا .

قلت له : جاءت امرأة قبل قليل تسأل عنك .

– ماذا ارادت ؟

– لم تخبرني . قالت فقط ، ان اسمها فاطمة ، وانها زوجة سي البكاي .

انتفض يوسف ، وقام من مجلســه ، واستدار ناحية الباب الخارجي ، ثم خطـا خطوات نحوه ، وعاد الي :

– يجب ان اذهب الان ، ابق هنا الى ان آتي . لن اتأخر كثيرا انك لا تعرف سي البكاي او لعلك سمعت به ايضا ؟

– لم اسمع به

– لقد قبضوا عليه بعد انفجار « الكاميرون » ، ونقلوه الى قصر الموت في المزرعة الواقعة على الطريق بين « غامبيطا » و « ديتري » ، وفي المســاء بعد ان القي علي القبض رأيته . وكان مشلولا . ، سي البكاي ما يزال مشلولا . لو لم تأت طائرة الهليكوبتر . لو لم تقبض علي طائرة الهليكوبتر ، لمات

سي البكاي ، ولدفن ايضا في الحفرة الملاصقة للقبـو بقصر الموت . لو كنت ادري بان القبض سيلقى علي سريعا لاخبرت سي البكاي بعدم كتمان اسمي . ، ولكن لا فائدة . لن يخبرهم باسمي .

هل تعرف كيف يعيش الان ؟

البلدية تتصدق عليه كل شهر . زوجته تذهب الى دار البلدية كل شهر مع العميان والمساكين ، وتقف في الصف الطويل .

ابق هنا . لن اتأخر كثيرا . انك لا تعرف سي البكاي .

قبل الثانية عشرة بقليل ، دخل الرجلان اللذان يعملان مع يوسف . وحينما لم يجداه ، استدار احدهما ووقف وراء الكونتوار ، اما الثاني فقد دخل الباحة ، ولم يخرج منها .

سألني الواقف وراء الكونتوار : اين ذهب يوسف ؟

قلت : الى سي البكاي . ربما ذهب الى منزله ، فقد جاءت زوجة سي البكاي تسأل عن يوسف .

قال : ولكن سي البكاي توفي :

— متى ؟

— قبل نصف ساعة . اخبرني بهذا سائق الطبيب .

— أين توفي ؟

— في المستشفى .

— كان يوسف يحبه .

تلعثم الواقف وراء الكونتوار قليلا ، ومسح بحركة سريعة احدى عينيه . وقال : طبعاً . فقد كانا معا في قصر الموت ، ثم نقلا معا الى معتقل «بودان» واستقرا اخيرا في السجن المدني الملاصق لقصر العدل . ومن السجن المدني

دخلا قصر العدل ، وحوكما معا . عن قضية مقهى « الكاميرون » ، وقـــد جيء بسي البكاي المشلول الى قاعة المحكمة محمولا على كرسي .. وانت تعلم بالاحكام السجن لسي البكاي والاعدام ليوسف .

يوسف ، كما تعلم ، كان صغير السن ، بزيد على الخامسة عشرة قليلا ولا يمكن تنفيذ حكم الاعدام الا بمن بلغ الثامنة عشرة . وهكذا كان على يوسف ان يقضي في السجن ثلاث سنوات تقريباً حتى يمكن وضع رقبته تحت حد المقصلة . لكن رقبة يوسف لم توضع تحت المقصلة . فقد خرج هو وسي البكاي من السجن المدني ، سوية ، بعد اتفاقيات ايفيان .

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة حين دخل صبي شاحب الحانة . وقال للواقف وراء الكونتوار .

– يوسف يقول انه لن يجيء . يقول ايضا يجب ان تغلق الحانة اليوم .. واخبرني انه يريد المفاتيح .

– اين يوسف الان ؟

– في دار سي البكاي .

اشاح الرجل بوجهه عن الصبي . وشعرت انه يكتم وراء هدبيه الطويلين رغبة حقيقية بالبكاء .

رباعية العمال الثلاثة

العمال المغاربة الثلاثة الذين رأيتهم مقيمين في الفندق ، منذ مجيئي قبل ثلاثة أيام ، ما يزالون يرتدون معاطفهم الثقيلة ، حتى في هذه الظهيرة المشمسة من شتاء « ملقا » . كانت وجوههم تشبه جلدا سيء الدبغ ، وكانوا يتحدثون همسا ، متقاربي الرؤوس .

في شرفة الفندق

الاول شعره أصفر بلون التبن الرطب ، الثاني شعره أسود جعد ، أما الثالث فشعره خليط من الملح والفلفل الاسود .

قال الثالث : سوف يجيء حتما .

قال ذو الشعر الاصفر : من يدري ؟

قال الثاني : هذا الفندق الغالي أكل درهمنا خلال اسبوع فقط ، لولاه لاخترنا فندقا آخر .

في الطاولة التي تلي طاولة المغاربة ، يجلس الضابط البحري ، المتقاعد منذ بدء الحرب الاهلية ، مع سكرتيرته الارجنتينية ، فهو الان مدير لاحدى شركات التعهدات البحرية في الارجنتين .

سكرتيرته الشابة التي تنتظر لحظة نوم الظهر عنده ، بقلق ظاهر ، ترتدي بلوزا اصفر خفيفا يشي بصيف متخيل على رمال الكوستادل سول . البارحة قال لي الضابط البحري المتقاعد انه زار البصرة وتل أبيب ، بعد الحرب الاولى ، وانه كان قائد غواصة في القوة البحرية الاسبانية عندما بدأت الحرب الاهلية .

قال الثاني : بعد يوم واحد يجب أن نترك الفندق .

قال ذو الشعر الاصفر : بعد غد ؟ لكن .. أين نذهب ؟

قال الثالث : سوف يجيء حتما .

اقترب مني الساقي ، الذي هبط الى المدينة من قريته في المرتفعات وراء القلمة العربية ، سألني إن كنت شربت نبيذا في الغداء ، قلت : نعم ، قال انه نسي أن يسجل ما شربته ، ـ النبيذ في هذا الفندق الذي يقدم مناما ووجبات ثلاثا مقابل دينار واحد ، ليس بالمجان . سألني ان كنت ذهبت الى « موتريل » حيث جرت عصر الاحد مصارعة للثيران اشترك فيها « القرطبي » El Cordobes قلت له انني حضرتها ، ولم يعجبني من « القرطبي » سوى وجهه .. ضحك . ومضى الى طاولة الضابط المتقاعد .

قال ذو الشعر الاصفر : مصيبة .. مصيبة ..

قال الثاني : ندبر رؤوسنا .

قال الثالث : سوف يجيء حتما .

امرأتان سمينتان ، ترتديان الملابس السود ، دخلتا الشرفة ، وجلستا لصق الحاجز الحديدي المصنوع على شكل ازهار لوتس من الحديد الاسود المطروق . طلبتا قهوة سوداء .

كانت الشمس التي تتألق بشكل غير اعتيادي ، تمنح منظر النافورة ، والميناء ، والسفن ، والقوارب ، والارصفة ، والمياه المتسخة قرب الشاطيء ، نظافة مرهفة . وكان شعر ذي الشعر الاصفر يلتمع رغما عنه .

سفينة الركاب ، القادمة من افريقيا ، تصل ميناء (ملقا) حوالي الساعة العاشرة صباحا . ومن الساعة الثامنة حتى الساعة العاشرة تمتد فترة الفطور في الفندق .

يجتمع الحمام المقبل من جهة الميناء

أتم المغاربة الثلاثة تناول الفطور مسرعين ، وكان الشاب ذو الشعر الاصفر أول من غادر قاعة الطعام ، يتبعه ذو الشعر الاسود ، فذو شعر الملح والفلفل . وبعد دقائق رأيتهم من قاعة الطعام المتصلة بالشرفة ، يقطعون الشارع العريض الذي يفصل الفندق عن منطقة الميناء ، متجهين الى المرسى ، وهم يمشون واحدا أثر الآخر في صف غير منتظم .

انتقلت من قاعة الطعام الى الشرفة ، المتألقة في نهار مشمس آخر ، ذي سحائب بيض صغيرة ، تحاق فوق السفن مثل طيارات ورقية واسعة غير منتظمة الاشكال . بعد قليل جاء الضابط البحري المتقاعد ، وسكرتيرته ، جلسنا معا ، نشرب القهوة ، وندخن ، وحينما أكملت السكرتيرة تدخينها ، تبادلت مع الضابط نظرة غير سريعة تؤكد - في الغالب - اتفاقا مسبقا ، وغادرتنا ، طائرة ، هفهافة ،

وكانها تشم لاول مرة هواء نقيا . استرخى الضابط المتقاعد ، وهو يراقب الميناء من خلل دخان سجارته . وقال لي دون أن ينظر الي : لقد ولدت في (ملقا) .

بدأت الشرفة تمتلىء بالقادمين الجدد : كانوا جزائريين في طريقهم الى مناجم الفحم والحديد وأعمال البناء في الشمال ومغاربة أشداء من بربر الريف ، واسبانيين يقضون اجازاتهم في الوطن ، قادمين من المناطق الاسبانية في شمال المغرب ، وعددا من السويديين والسويديات الذين كانوا في أقصى نقطة بلغتها سياحتهم : مدينة مراكش على حدود الصحراء .

كان ضجيج القادمين الجدد ، يهدأ ، شيئا فشيئا ، مع القهوة والبيرة والشاي الخفيف ، وكان الضابط المتقاعد يستسلم ، لاغراء اغفاءة عذبة تحت شمس (ملقا) الشتائية .

في زجاج الباب المفتوح بين قاعة الطعام والشرفة المكتظة الان ، رأيت المغاربة الثلاثة . كانوا واقفين ، لا يتحدثون ، وهم يبحثون بعيونهم التي كانت تتحرك وحدها ، عن مكان للجلوس . أخيرا ، وجدوا لهم موضعا . كرسيين فقط . جلس ذو شعر الملح والفلفل ، جلس ذو الشعر الاسود ، أما ذو الشعر الاصفر فقد ظل واقفا .

قالو ذو الشعر الاصفر : لم يأت ، اليوم أيضا .

قال ذو الشعر الاسود : مصيبة . مصيبة .

قال ذو شعر الملح والفلفل : سوف يجيء حتما .

فرغ كرسي قربنا ، فاتجه اليه ذو الشعر الاصفر ليأخذه ، لكن أحد السويديين سبقه ، فأخذ الكرسي .

عاد ذو الشعر الاصفر الى صاحبيه وهو يزم شفتيه على شتيمة حادة .

مر الساقي بالمغاربة الثلاثة مرتين ، وفي كل مرة كان الجالسان يقربان رأسيهما من بعضهما .

من آخر الشرفة نهض اثنان عن كرسييهما ، مخلفين على الطـاولة ، علبة دخان كولواز ، وأربع زجاجات بيرة ، وخارطة ممزقة قد تكون للطرق الاسبانية، كانا ذوي ملابس متماثلة ، وشعر طويل ، كانا شابا وشابة . ،

وبطير ثانية

طفل يبـدأ يبكي ، في جانب الشـرفة الملاصق لقاعة الطعام ، هدأته أمه قليلا ، ريثما تتم قهوتها ، ثم اصطحبته مغادرة الشرفة .

الضابط المتقاعد أخـذ يتنفس الان - في اغفاءته تنفسا هادئاً . انبسطت ملامح وجهه ، وبدا اصغر من سنه قليلا .

طاولة صاخبة فرغت ، بسرعة غير منتظرة ، قرب المغاربة ، تنـاول ذو الشعر الاصفر كرسياً ، وجلس الى صاحبيه .

كانت الشرفة تخلو من اصحابها لينفرد بهـا المغاربة الثلاثـة والضابط النائم وأنا .

قال ذو الشعر الاصفر : لقد وعدنا ان يأتي ، وكان وعده اكيداً .
قال ذو الشعر الاسود : ربما لم تقبل زوجته .
قال ذو شعر الملح والفلفل : النساء لا يتخلين عن الذهب بسهولة .

سرب من الحمام الرصاصي يندفع من جهـة الميناء ، ويحلق ، خاطفا ، فوق النافورة التي يرتفع رشاشها اللامع في الاف من الجزيئات الملونـة الهشة ، ثم يحط ـ وكأنه القي فجأة من سلة واحدة ـ على السطح الهابط أسفل الشرفة ، وعيون الحمام القلقة تبحث عن لا شيء في غربة مجتمعة اليفة المنظر .

قال ذو الشعر الاسود : ذهب زوجته ، هو ذهب عرسها ، من الصعب ان تتخلى المرأة عن ذهب عرسها .

قال ذو الشعر الاصفر : ولكنها قبلت ببيع ذهبها .

قال ذو الشعر الاسود : ربما غيرت رأيها .

قال ذو الشعر الاصفر : لم لم تغير رايها عندما كنا هناك ؟

قال ذو الشعر الاسود : لاننا كنا هناك.

فتح الضابط البحري المتقاعد عينيه، ثم أغمضهما ، متقياً النور الذي يغمر الشرفة والطاولة ، ويضيء من قاعة الطعام جزءها القريب ، ثم فتحها ثانية ، واعتدل في جلسته . تناول سيجارة ، اشعلها بهدوء متلذذ ، وشرع يدخن .

قال ذو شعر الملح والفلفل : حلمت البارحة به ، كان يسير على الماء ، وبيده غصن من الرند . كانت السفن والزوارق تتنحى عن مسراه ، وعندما بلغ الرصيف اختفى .

ضحك ذو الشعر الاصفر ، وهو ينقر بأصابعه الطاولة نقرات خفيفة متصلة . سرب الحمام ، يندفع ، مبتعداً عن الشرفة ، بزاوية حادة ، بينما ينهض الضابط المتقاعد من جلسته الخدرة ، ويغادر الشرفة ، وهو يودعني بايماءة من رأســـه .

هبطت من غرفتي ، في الضحى المعتم ، مثقل الرأس ببقايا النبيذ الحلو « الموسكاتيل » ، الذي أفرطت فيه ، عندما قضيت سهرتي في المقهى الغجري ، الذي يقع غير بعيد عن الفندق .

لم يكن باستطاعتي استعادة ما فعلته البارحة ، الا انني استطعت أن أتذكر شيئا واحدا ، هو انني عدت الى الفندق في سيارة للاجرة

عبر واجهة البار نحو سماء مكفهرة

وأن السيارة ظلت تدور بي في شوارع « ملقا » مدة سئمت منها .

لم أذهب الى قاعة الطعام لاتناول فطور الصباح . كان الضحى أكثر

عتمة من أن أتحمل البقاء داخل الفندق . وهكذا كنت اجتاز الممرات والسلالم ، لابلغ المقهى ، أسفل الفندق ، حيث علي أن أمر أولا ببار « هنا باريس » ، المنطلق الاول في كل مساء مبكر . كنت أريد أن أشرب قهوة سوداء ، وأدخن سيجارة سمينة من سجائر جزر الكناري ، فقد كان هذا اليوم ، أول يوم شتائي مذ بلغت « ملقا » . وكان يوماً عطراً أيضاً .

عندما سلمت مفتاح غرفتي الى استعلامات الفندق ، رأيت المغاربة الثلاثة يهبطون ، مغادرين الفندق ، مع حقائبهم الصغيرة ، ومعاطفهم الثقيلة . وكان ذو الشعر الاصفر يبدو محني الظهر قليلا .

بين الفندق ، والمقهى ، يقع بار « هنا باريس » الذي تديره امرأة وسط - يبدو أنها جاءت من شمال اسبانيا - تشرف على مجموعة فتيات ، ويتألف بار « هنا باريس » من مكان أرضي ، وقاعة علوية خافتة الاضواء ، تجالس فيها فتيات البار زبائنهن ، مساء حول فنجان قهوة أو كأس بيرة واحد ، قبل أن يحددن مواعيدهن .

كنت أريد أن أذهب الى المقهى ، لكن المطر ، ووجود فتاة وراء الكونتوار ، كنت أعجب بها ، أرغماني على الدخول في « هنا باريس » . ألقيت على الفتاة تحية الصباح ، وطلبت قهوة سوداء . كان المطر في الشارع الضيق يهطل من كل مكان ، بغزارة عجيبة ، حتى لتكاد الميازيب تختنق في تدفقها الهادر .

الدرجات السبع الخشب التي تصل بين المكان الارضي والقاعة العلوية ، بدأت تهتز بصوت مكتوم ، وحين التفت ، رأيت المغاربة الثلاثة يهبطون . دفعوا الحساب ، وكان عن ثلاثة فناجين قهوة بالحليب ، وانفتح الباب الزجاجي ،

أمام هجمة مائية خلطفة ، ليخرج المغاربة الثلاثة من دفء « هنا باريس » ، وفتاة الكونتوار ، والقهوة الساخنة .

كانوا يقطعون الشارع متجهين الى الميناء ، وكانت معاطفهم الثقيلة تتشرب بالمياه الغزيرة ، التي اخذت تقطر على حقائبهم القماشية

النافورة تلتم على نفسها ، وسط الساحة الواسعة ، بلا اقواس قزح ، ولا اسراب حمام ، والسيارات المسرعة لامعة نظيفة بشكل استثنائي ، والبحر يبدو من البعيد ملتصقا بالسماء التي تقطر ماء .

السفن وحدها ، في الميناء المشوش المنظر ، كانت في مناخها الحقيقي .

عين السيكلوب

الضوء مطفأ داخل الشقة .

حين سمعت الدق على الباب ، قدرت ان الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل . في البلاد الاخرى يحرصون على الاحتفاظ بالمفتاح داخل الثقب ، خشية ان يلاحظ من هو خارج المنزل ، النور ، من خلال ثقب المفتـــاح . أو خشية إدخال مفتاح مقلد من خارج الباب .

تستطيع ان تبقي النور مطفأ ، وان تعرف القادم الذي يطرق الباب ، او يضغط على زر الجرس الكهربائي ، بمجرد النظر في « عين السيكلوب » ، العين السحرية المثبتة في خشب الباب ، عدسة صغيرة مكبرة .

عندما تضع عينك على العدســة يبدو القادم من اخر الممر الخارجي – وغالباً ما يكون هذا الممر مضاءً – قميئاً ، قصيراً ، وما ان يخطو خطـوة حتى يبدأ بالتعملق . فاذا قارب الباب اتسع وجهه ، واتسع ، حتى ليـكاد يغطي المسافة بين جداري الممر كلها .

ان « عين السيكلوب » تقوم بدور سكرتير منزه عن الخطأ في استقبال الناس . الدق على الباب يزداد عنفاً .

غادرت فراشي ، حافياً ، لئلا يصدر مني اي صوت . لم اكن بحاجة الى النظر من خلال « عين السيكلوب » ، فقد كان صوت مــدام داي يتعالى مصحوباً بدقاتها العنيفة :

– أيها العراقي . . . أين ابنتي ؟

ان ابنة مدام داي ليست معي في الشقة ، ولا يمكن ان تكون معي ، او مع اي انسان آخر ، في مثل هذه الساعة المتأخرة . صحيح انني اتبادل الحديث مع ابنتها ، وان ابنتها شابة غير دميمة ، لكني لم استقبلها في شــقتي مساء . ومدام داي تعرف الامر معرفة تامة ، إذ لا يفصل بين شقتها وشقتي سوى قاطع من الخشب المعاكس القابل للانهيار في اية لحظة تحت ضربات المدام ، كما تعرف ايضاً انني غادرت الى وهران عصر اليوم . فقد شـاهدتني هي وابنتها ادخل الحافلة المهيأة للانطلاق ، بينما كانتا تقومان بجولتهما المعتادة من سينما فرساي الى نصب الفرقة الاجنبية ، مارتين بمقهى الاتحاد والنادي العسكرى وبار الكاميرون ومنطلق الحافلات .

– أيها العراقي . . . أين ابنتي ؟

وجه مدام داي المحتقن ممتلىء بغضون متضخمة . المدســة اليمنى من نظارتها الطبية ملتصقة بالباب مثل صحن شفاف وثقيل . دقات عنيفة اخرى .

والوجه المتضخم يزداد احتقاناً ، والغضون تزداد تضخماً . آه يا بنيتي . ياكلبة .. الوجه يبتعد . يظهر الشعر الأبيض والملابس السود . تتحول مدام داي الى دمية صغيرة متحركة ذات شعر أبيض وملابس سود .. تختفي الدمية الشمطاء الصغيرة .. عند أول درجة من درجات السلم الهابط .

– ما هذا ؟ ما هذا ؟

إنه صوت مدموازيل گرانديوم . لا بـد من ان عشيقها غادرها الليلة مبكراً .. لا .. إن الصوت المتميز لسيارته « الپانار » الرمادية يفضح زيارة المساء المتأخر ، ويمزق الصمت الليلي في شارع المدينة الصغيرة الرئيس ، ثم يخف ، ويخفت .. حتى يتلاشى في هربر منتظم

من عين السيكلوپ أرى الشعر الأصفر المضطرب ، والوجه الأصفر الرقيق لمدموازيل گرانديوم ، وأعلى الروب الأصفر . إنها في وسط الممر الخارجي ، تماماً تحت المصباح الكهربائي كما أقدر .. عادت الى الاستوديو الذي تسكنه ، وهي لا تخفي تأففها . لم أسمع باب الاستوديو ينطبق .

الخطوات المسرعة القلقة تضرب درجات السلم الهابط الى الطابق الأول ، كانت كل ضربة منها أشبه باصطفاق حاد لقطعتين من اللوح الرقيق . الخطوات تتوقف فجأة .. دقات عنيفة عصبية على باب آخر :

– ايها العراقي ... أين ابنتي ؟

هي ، إذن ، أمام باب « طارق » ، العراقي الذي يسكن الاستوديو الأول في الطابق الاول .

لقد إنه جاء البناية منذ اسبوع فقط . كان يعمل في قرية تبعد ١٩ كيلو مترا ، ويقيم في محل عمله ، وقد اشتغلت بنت مدام داي في القرية نفسها شهراً واحداً

قبل أن تنقل إلى المدينة .

في الساعة العاشرة من مساء اليوم ، وجدت باب استوديو طارق مفتوحاً زرته ، وتحدثنا قليلا . كان وجهه حليقاً بعناية ، تفوح منه رائحة ماء الكولونيا . قال لي انه آثر السكن هنا ، على السكن في القرية ، باعتبار ان المواصلات مضبوطة مريحة معتدلة التكاليف . سألته عن ابناء العراق ، وعلاقته مع الفتيات . كان مستعجلا في حديثه . مقتضب الاجابة ، متلهفاً الى شيء ما . أعطاني كيسين صغيرين يحتوي أحدهما على بهارات ، وثانيهما على شاي أسود جاء به من العراق . قضيت معه حوالي نصف ساعة ، ثم عدت الى شقتي في الطابق الثاني .

– ما هذا يا مدام داي ؟

الصوت يبلغني ، رقيقاً ، مليئاً ، فيه شيء من الارتجاف اللذيذ . إنه صوت ماري تيريزا « ماريتا » . ابنة الحلاق الاسباني التي تعمل بائعة كتب في مكتبة مينو قرب المسرح البلدي . « ماريتا » في السابعة عشره ، فتاة مندفعة ، قصيرة الشعر ، عنيدة ، ونشيطة .

في الاستوديو الذي يسكنه طارق الآن ، كان يقيم بائع نظارات فرنسي من اصل اسباني . أرسل زوجته إلى فرنسا ، وظل يقيم حفلات رقص صاخبة حتى الصباح . مصفياً محل النظارات . قطعة قطعة ، حتى غادر هو الآخر إلى فرنسا ، دون ان يدفع ايجار الاستوديو لمدة ثلاثة أشهر ، وكانت « ماريتا » ترقص وتغني في هذا الاستوديو إلى ساعات الصباح الاولى .. بعد سفره ظلت نائمة في فراشها أسبوعاً .. كانت متعبة .

– مسكينة مدام داي ..

إنها « ماريتا » ايضاً .

مدام داي مسكينة فعلاً . كان اسمها فاطمة ، جاءت إلى هذه المدينة من ولاية « الأصنام » ، مع ابنة عم لهـا . كانتا تعملان ساقيتي خمر . ابنة عمها عاشرت تاجراً صغيراً وتركت العمل في الحانات . أما هي فقد تعلق بهـا نائب عريف فرنسي من الفرقة الأجنبية . رافقته في مراكش ، وكازبلانكا ، والسنغال ، وتونس ، والأغواط على حدود الصحراء الكبرى . ولم يتزوجا إلا بعد ثماني سنوات . وحين تقاعد من الجيش أعطي وظيفة مدنيه جيدة . لم ينجبا. هذه البنت هي ابنة أخيها . جاءت بها من الأصنام وهي في الرابعة ، ربتها ، وأدخلتها المدرسة ، وحين مات المسيو داي ، عاشتا ، معاً ، على تقاعد متواضع ، حتى أتمت البنت دراستها ، وبدأت تعمل . مدام داي تصوم ، وتفكر بالذهاب إلى مكة ... إنها تريد أن يتوفر لها المال الكافي للحج ، وهي تتمنى لبنيتها زواجاً سليماً . عندما خيرت مدام داي بين الجنسية الفرنسية وجنسية وطنها ، بعد الاستقلال ، اختارت وطنها ، بالرغم من أنها لاتتحدث إلابالفرنسية ولا تختلط إلا مع بقايا الفرنسيين والإسبان هنا . وبالرغم من أن تخصيصاتها التقاعدية في فرنسا سوف تكون أكثر .

مرة أرتني صورة زوجها ، كانت صورة قهوائية ثخينة لجندي شاب نحيل في خيمة . قالت إنه أرسل هذه الصورة من مراكش . وأرتني بعدها صورة ثانية لزوجها . كان موظفاً سميناً في مؤسسة تأمين . قالت إنه مات بالسكتة القلبية ، وإنه ظل يردد اسم ابنتها طيلة احتضاره .

ـ لا أحد يجيب .

الصوت المنكسر لمدام داي مرة أخرى ، وأسمع خطواتها أقل نشاطاً ، وهي تصعد السلم إلى الطابق الثاني . إنها تبدو الآن من خلل عين السيكلوپ ، دمية ضئيلة لعجوز ملفعة بالسواد تتجه إلى باب شقتي ، متضخمة في كل خطوة تخطوها .

ـ لقد هرب العراقي . لقد هرب بحقيبته ..

صوت « ماريتا » يرن رنين أجراس فضة في ممرات البناية . الدمية الملفمة بالسواد تتوقف في منتصف الطريق إلى شقتي ، تماماً ، تحت المصباح ، وتبدو مكشوفة بشكل مؤلم . لي .. ولعبني مدموازيل گراندبوم ، الواقفة ، حتماً ، الآن ، خلف الباب الموارب .

الدمية السوداء تعود متضائلة باستمرار . إلى أول السلم .

- أيتها القحبة !

الدامية السوداء تمسك بشعر دمية أخرى . بشعر ابنة مدام داي ، وتجرها من شعرها جراً إلى وسط الممر ، نحو باب شقة مدام داي المفتوح الدمية السوداء تتضخم ، والدمية الأخرى تتضخم ...

ابنة مدام داي ، مهدلة الشعر ، عارية ، إلا من روب أبيض مزين بأزهار وردية .

- اسكتي وإلا انتحرت .

- أيتها القحبة !

أفلتت البنت من قبضة مدام داي المرتعشة ، وأسرعت وهي تقفز ، نحو المصعد .

- سوف ألقي بنفسي من سطح العمارة .

- أيتها القحبة !

الدمية السوداء الصغيرة تتجه نحو السلم الهابط .

- مدام داي .. إلى أين تذهبين في هذا الليل ؟

إنه صوت « ماريتا » .

في العمارة ، كل شيء صامت . لكن كل شيء متنبه . أقل نأمة تفتح كل العيون ، وراء كل الأبواب .

ربع ساعة من الصمت .

سيارة تتوقف ، عند مدخل العمارة كما أقدر .

وقع أقدام كثيرة على السلالم. دمى عديدة تدخل الواحدة بعد الأخرى، المجال المنظور من الممر، وهي ترتدي ملابس الشـــرطة الزرق، وملابس مدنية أيضاً ـ تتضخم الدمى، ويظهر من بينها ضابط شرطة. قد يكون القوميسار نفسه. الذي قد يكون القوميسار يوجه عدداً من رجال الشرطة باشارة من يده إلى المصعد. يتقدم، تتخذ ملامحه شيئاً فشيئاً وضعها الطبيعي. يتحدث مع مدام داي، ثم يدخل معها الشقة التي ظل بابها مفتوحاً منذ ساعة تقريباً.

الدمى التي ترتدي ملابس الشرطة الزرق والملابس المدنية أيضا، تخرج من باب المصعد.

أحدهم، وهو الذي يرتدي معطفاً من التركال الخفيف الأسود، يمسك بيد ابنة مدام داي.

وجه الابنة، وهو يتضح في المجال المنظور لعين السيكلوب، يبدو محتقناً، مخموشا عدة خمشات. أما هي فمنقادة انقياداً مستسلماً الى يـــد الرجل ذي معطف التركال الخفيف الأسود.

رجال الشرطة يغادرون، عن طريق السلم.

الذي قد يكون القوميسار يغادر عن طريق المصعد.

السيارة عند مدخل العمارة تتحرك مبتعدة، بينما يعود الصمت القلق إلى الممرات والغرف.

مدموازيل گرانديوم تحكم إغلاق الباب.

«ماريتا» في الطابق الأول تدندن أغنية عن الحب، وتطبق الباب أيضاً.

أنا أبتعد عن الباب، وعين السيكلوب، وأدخل الحجرة التي لا يفصلها عن شقة مدام داي سوى قاطع من الخشب المعاكس، ثم اجلس لصق هذا القاطع.

قال الرجل ذو المعطف: مدام . أرجو ان تتركينا وحدنا.

لم اسمع رد مدام داي.

قال الرجل ذو المعطف : هل نزلت انت اليه ؟

قالت البنت : نعم .

هل نالك ؟

ـ لا .

ـ هل كنت على موعد معه ؟

ـ نعم .

في هذه الليلة ؟

ـ نعم .

في هذه الليلة ، عادت البنت مع امها ، بعد جولتهما اليومية المعتادة . ان البنت لا تخرج الى شوارع المدينة ، ومخازنها ، الا رفقة امها . الشباب يمرون بهما . يلقون نظرة على البنت ، ونظرة اخرى على الام ، ثم تلتقط نظرانهم فتاة اخرى تتمشى وحيدة ، أو فتيات أخريات يتمشين معاً متضاحكات .

انهما تعودان الى الشقة الضيقة مع الغروب دائماً . ومع الغروب تكون الشوارع الخلفية ، وسيقان الاشجار الضخمة في شارع « المقطع » أعشاش حب متناثرة متقاربة .

السنوات تمر . والجولة اليومية تستمر ، السنوات تمر . والشوارع الخلفية وسيقان الاشجار تستضيف عشاقاً جدداً يتزوجون أو لا يتزوجون .

السنوات تمر ، والبنت تمر مع أمها كل يوم . انها لم تتوقف مساء ما في ركن معتم من شارع خلفي ، أو وراء ساق شجرة ، . . في هذه الليلة سوف تتوقف طويلا في استوديو العراقي .

قد يكونان اتفقا على الموعد في القرية ، أو في الحافلة العائدة منها . ان البنت ما تزال تأخذ راتبها من مدرستها السابقة في القرية .

قال الرجل ذو المعطف : وامك ؟

قالت البنت : كانت نائمة .

شقتها الصغيرة ، ذات غرفتين ودوش فقط ، ودون مطبخ . البنت تنام في الغرفة القريبة من الباب . اما الام فتنام في الغرفة الداخلية الملاصقة لشقتي .

كل ليلة تغلق الام باب الشقة ، وتحتفظ بالمفتاح تحت رأسها ، وتضع طاولة الطبخ ، وطباخ الغاز وراء الباب ، قبل ان تدلف الى غرفتها الداخلية ، وتنام نوماً غير عميق .

إنهما تعيشان وحيدتين . أقرباؤهما في ولاية « الاصنام » البعيدة لا يزورونهما أبداً . والناس في هذه المدينة يعتبرونهما غريبتين : الام كانت متزوجة من فرنسي في الفرقة الاجنبية ، والبنت لا يعرفون بالضبط من تكون . فابوها وامها يعيشان في « الاصنام » البعيدة . ومن يدري من يكونان هما ايضاً .

لم يدخل شقتهما رجل من المدينة منذ موت المسيو داي . والام مقتنعة بان دخول رجل أو فتى شقتها ، امر غير مقبول ، ولا سليم ، فهما امرأتان وحيدتان غريبتان عن هذه المدينة نوعا ما ، رغم السنوات الثلاثين التي قضتها الأم هنا .

البنت في فراشها القريب من الباب تنتظر ان تنام امها . والفتى في الطابق الاول ينتظر الخطى الخفية .

قال الرجل ذو المعطف : كم حبة منوم تناولت ؟

قالت البنت : حبتين .

– هل اعتادت تناول هذه الكمية ؟

– لا .

– اذن .. لماذا أخذت حبتين ؟

. . . . . .

حوالي الحادية عشرة ، تنصرف الام الى غرفتها لتنام . وتظل البنت تستمع الى اذاعةمونت كارلو ، وقد تقوم في الوقت نفسه باعداد اعمالها المدرسية .

ربما لم تنم الام سريعا . ربما شعرت بانها ستكون الليلة فريسة أرق مرهق . .

انها تحتفظ دائما بزجاجة صغيرة للحبوب المنومة . والبنت هي التي تأتي لها عادة ، بالحبة ، وكأس الماء .

ربما شكت الام ارقها .

ان الفتى في الطابق الاول ينتظر الخطى الخفية .

حبتين بدل حبة واحدة ..

سيكون النوم عميقاً ، مريحاً . . وسوف تكون الانفاس هادئة مستسلمة ، داعية الى الاطمئنان .

سوف تستطيع البنت ، آنذاك ، ان تستل المفتاح ، من تحت راس امها ، دون وجل ، وان تبعد طاولة الطبخ وطباخ الغاز من وراء الباب ، غير آبهة بالصرير الذي قد لا يمكنها تجنبه ، اثناء تحريكها الطاولة والطباخ .. وسوف يكون باستطاعتها ان تدير المفتاح ، وتفتح باب الشقة ، بثقة شبه تامة .

قال الرجل ذو المعطف : هل كانت تشكو أرقاً شديداً ؟

قالت البنت : نعم .

– هل اقترحت عليها تناول حبتين ؟

– نعم .

ألم تعرفي أن هذا قد يضر بها ؟

– لا .

المسيو داي مات بالسكتة القلبية . كان موته سريعاً وفاجعاً بالنسبة لمدام داي وابنتها .

ومنذ موته دأبت مدام داي على استشارة الدكتور فيسيدو الذي يعمل في عيادة قريبة من الفرساي . كانت تذهب اليه كل ستة اشهر ليفحص قلبها .

وحين سألته عن الحبوب المنومة ، اختار لها نوعاً من الحبوب مناسباً ،

مشدداً على الا تتناول سوى حبة واحدة ، وقت الحاجة الماسة .

في هذه الليلة ، كانت تريد ان تنام فقط . ان تنام نوماً عميقاً . وعندما اقترحت عليها ابنتها تناول حبتين ، لم تجد بأساً في مخالفة نصيحة الطبيب ، ولو مرة واحدة ، بل انها لم تسأل ابنتها عن الضرر الذي تلحقه بها مخالفة نصيحة الطبيب ، ولو على سبيل الاطمئنان .

غداً ، ذكرى موت زوجها .

وهي تريد أن تذهب إلى المقبرة ، في الصباح الباكر ، بعد ان تشتري الزهور من أول بائع تجده في السوق .

قال الرجل ذو المعطف : أتحبين أمك ؟

قالت البنت : نعم .

إنها تحب أمها . تمسك يدها ، وهما تسيران في الشارع ، تقترح عليها الملابس الجميلة المناسبة لأمرأة في مثل سنها ، وتصحبها الى صالون الحلاقة ، مشاركة اياها في اختيار التسريحة وصبغة الشعر ؛ وعندما تسافران الى مكان ما ، تحمل هي حقيبة ملابس أمها ، وتعني بأن تجلسها في المكان المريح من القطار أو الحافلة .

إن أمها الحقيقية ، في ولاية « الاصنام » البعيدة ، وهي لا تحتفظ بذكريات طفولة عن أمها الحقيقية . إن ذكرياتها الأولى هي مع مدام داي التي كانت تمشط شعرها ، وتشتري لها الدمى والملابس والحلوى ، وترافقها إلى المدرسة الابتدائية ، وهي التي صحبتها – بعد ان نالت الشهادة الثانوية – في كل معاملات التوظيف الطويلة المتعبة . وهي التي أرتها مدن فرنسا وسويسرا في سفرات امتد بعضها ثلاثة أشهر . وهي التي تعنى بها الآن . وتعرفها على حقائق الحياة .

إنها تحب أمها .

قال الرجل ذو المعطف : والعراقي ؟ تحبينه ؟

قالت البنت : نعم .

قد تكون فتوته ، وغرابة جمال وجهه ، هما ما أثارا اهتمامها به ، عندما دخلت تلك المدرسة الريفية .

إنه يتلعثم في حديثه قليلاً ، ويبدو مهزوزاً نوعاً ما تجاه العلائق الاجتماعية.

أهو خشن ؟ لا .

أهو مهذب ؟ لا .

عيناه جميلتان دون شك ، ولهجته العربية غريبة .

ضحكت في سرها من نطقه المغلوط لبعض الكلمات الفرنسية التي يدخلها في حديثه تشبهاً بزملائه من بني وطنها .

سألها عن مسكنها .

وكل يوم كان يتحدث إليها قليلاً ، أو ينظر إليها طويلاً حين لا يلحظه أحد سواها .

مرة قال لها إنه سوف يسكن المدينة . قريباً منها .

اقترحت عليه أن يسكن ذلك الاستوديو بالطابق الأول ، فلقد فرغ منذ أيام .

قال الرجل ذو المعطف : هل وعدك بالزواج ؟

قالت البنت : لا .

بغداد ١٩٧٢/١١/٢٧

صباح السبت ... مساء الأحد

من مركز مدينة « مغنية » ، بالغرب الجزائري ، تستطيع أن تسلك ثلاثة طرق واسعة : أما الطريق إلى وهران فيتجه بك شمالاً ، والطريق إلى تلمسان يتجه بك جنوباً ، أما طريق الغرب فيوصلك بعد أقل من عشرين كيلومتراً إلى الحدود الجزائرية — المغربية ، ومن ثم إلى مدينة « وجدة » المغربية ، حيث تنفتح أمامك ، دفعة واحدة ، كل الطرق إلى كل القارات .

مركز مدينة « مغنية » متواضع : مفترق نظيف ، وإشارات مرور واضحة جداً ، ومقهى حديث افتتح مؤخراً في احتفال أذيع خبره من الاذاعة الوطنية ،

وفندق « مرحبا » الوحيد ، ومجموعة مطاعم متوسطة وصغيرة ، ومحطة الوقود ، وموقف سيارات الأجرة .

من مركز المدينة . تتفرع دون تمهيدات ، الأزقة المزدحمة ، ومحلات تصليح السيارات ، والأسواق الشعبية حيث تتجول الخراف المعروضة للبيع ، وحيث يأتي فلاحون عليهم سمات المغاربة ببضاعتهم ونسائهم شبه المحجبات . .

هنا أيضاً ، باعة المقانق والأكباد المشوية ، والبطاطس المهروسة والمقلية بشكل أقراص صغيرة لها لون الزعفران .

□

اثنان وجدا نفسيهما ، مباشرة ، بعد أن دفعا الباب الثقيلة ، أمام موظف الاستعلامات في فندق « مرحبا » . كانت حقيبتاهما خفيفتين ، وكان أحدهما — وهو الأصغر سناً — قلق العينين واليدين ، أما الآخر ، ويبدو عليه أنه يقارب الثلاثين ، فاتجه إلى موظف الاستعلامات ، مقدماً جواز سفره ، ومتناولاً بطاقتين بدأ بملئهما دون أن يستعين بجواز السفر ، وعندما انتهى تناول بطاقتين أخريين ، والتفت إلى صاحبه ، طالباً منه جواز سفره . بحث هذا في جيوبه كلها ، ثم فتح حقيبته شبه مضطرب ، ونثر ملابسه وهو يتنفس تنفساً مسموعاً ، ثم أخرج جواز السفر . تناول الآخر الجواز ، وشرع يملأ البطاقتين . وقع الأصغر سناً ، وأخذ موظف الاستعلامات الجوازين والبطاقات الأربع ، ثم ناول الآخر مفتاح الغرفة .

تمت العملية ، ولم يسأل موظف الاستعلامات سوى سؤال واحد :

— كم ستقيمان هنا ؟

— ليلة واحدة . سنغادر صباح الأحد .

★

في الشمال الغربي لـ « مغنية » ، وعلى مبعدة كيلومترات قليلة ، يقع ميناء « پور ساي » الصغير ، والبحر المتوسط . كان ميناء « پور ساي » يشكل مع « بني صاف » أهم مركزين لصيد الأسماك بين وهران ومليلية الاسپانية على شاطيء البحر المتوسط ، أما الآن فلم يتبق من أسطول صيد السمك سوى عدد قليل من الزوارق القديمة التي لا تغامر بالتوغل عميقاً في البحر ، والتي لا تكاد تكفي حاجة سكان المدينة إلى الطعام البحري الذي ألفوه منذ زمن طويل ، والذي لا يستطيعون الاستغناء عنه بسبب غلاء اللحم ، إلا أن أعمالاً جديدة توفرت لأهالي « پورساي » وإن لم تكن بسعة الأعمال القديمة وأمانها ، من هذه الأعمال التهريب : تهريب البضائع والأشخاص بين المغرب والجزائر ، والاستفادة من فرق العملة بين أرض كانت مشتركة يوماً ما ، ولا يفصل بينهما – حتى الآن طبعاً – سوى نهر يستطيع الأطفال عبوره سابحين .

□

جوازا السفر مغربيان .

من السهل معرفة الأمر بمجرد التقاط العين لون الغلاف الأخضر الشاحب الصقيل .

في الصباح كان موظف الاستعلامات في فندق « مرحبا » يقلبهما ، وهو يتحدث إلى أحد رجال الكمارك :

– مضت عليهما سنتان دون أن يدخلا المغرب .

– هل غادرا الجزائر ؟

أعاد موظف الاستعلامات تقليب الجواز الأول :

– بن عمر سافر إلى هافانا عام ١٩٦٥ . هذه هي سفرته الوحيدة .

□

الطائرة التي يجلس فيها بن عمر ، لصق النافذة ، هي طائرة التوپوليف

التي تتوقف عادة في مطار العاصمة الجزائرية ، في رحلتها الطويلة من موسكو إلى هافانا . كان الجو داخل الطائرة أقل من دافيء ، وكان بن عمر يشعر بنوع من الخدر الخفيف . مال بصدغه على الزجاج ، فبعثت الاهتزازات السريعة العميقة شعوراً أكثر بالخدر في رأسه . عدل جلسته ، وألقى براسه إلى الخلف ، مغمضاً عينيه ، محتفظاً بآخر صورة التقطتها عيناه من داخل الطائرة : فتاة واسعة العينين ذات سروال واسع وشعر طويل أسود ناعم جداً .

إنه يرى الفتاة ، الآن في مساء بالدار البيضاء . عيناها واسعتان . لكن شعرها الطويل الناعم يختفي تحت غطاء الرأس الذي يشكل جزءاً من « الجلابة » . الفتاة تحدثه ، تمسك بيده ، ويسيران معاً ، نحو الميناء ، حتى إذا بلغا مرسى الزوارق ، انحرفا . . وتابعا سيرهما . اقتربا من مقهى « سجلماسة » ، حيث اعتادا أن يجلسا ، مواجهين البحر ، في قاعة داخلية ذات زجاج ملون وزخارف خشب .

عندما بلغ المقهى ، لمح رجلين في الممر الجانبي . كان وجه أحد الرجلين معروفاً ، أما الآخر فقد اندفع نحو بن عمر . صرخت الفتاة صرخة واحدة ، ثم اختفت عن عيني بن عمر في استدارة الممر الجانبي مع حركة الرجل الاول .

مرات عديدة ، استطاع بن عمر ان يتخلص ، كما تخلص هذه المرة . الا انه في هذا المساء ، حزن حزناً عميقاً . ان « مليكة » لن تكون معه ، حتى لو عادت الى منزلها بالدار البيضاء بعد يوم او بعد سنة . « مليكة » سوف تخجل من النظر في عينيه .

مدن عديدة ، تنقل بن عمر بينها ، لكن مدينتين ظلتا تنبضان في نفسه : الدار البيضاء وفاس .

في فاس ، سكن « عدوة الاندلسيين » ، كان مسكنه ، مثل مساكن الطلبة بجامعة القرويين ، غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة تطل على زقاق من تلك الازقة التي تطول وتلتوي وتصعد وتهبط لتعود بالمرء الى منطلقه الاول بعد ان تطوف به المدينة .

في هذه الغرفة الصغيرة ، أقام بن بركة ليلتين . كان يجيء قبيل انتصاف الليل ، مرتدياً برنساً خشناً ، مع شابين يتركانه حين يبلغ الباب . وكان بن بركة يبدو مثقلاً ومرهقاً ، واثقاً وقلقاً في آن واحد .

في الليلة الثانية أجاز بن عمر لنفسه ان يوجه سؤالا الى بن بركة :

– ممن نتعلم ؟

أجاب بن بركة : من انفسنا ومن كوبا .

الحرارة داخل طائرة التوبوليف المتجهة الى هافانا ، ترتفع . يفتح بن عمر عينيه ويوجه منفذ التهوية نحوه ، دون جدوى . يغمض عينيه مرة اخرى ، ويعود الى أزقة فاس الطويلة الملتوية الصاعدة الهابطة . ويبلغ « عدوة الاندلسيين » ثم يدخل غرفته الصغيرة .

– ممن نتعلم ؟

– من انفسنا ، ومن كوبا . .

□

موظف الاستعلامات في فندق « مرحبا » أخذ يقلب الجواز الثاني :

– عبدالكريم سافر الى مرسيليا عن طريق ميناء وهران عام ١٩٦٦ .

□

سفينة الركاب « القيروان » ، من اقدم السفن التي تعمل في البحر المتوسط . وهي ذات خط واحد : وهران – أليكانت – برشلونة – مرسيليا ،

وبالعكس ، و « القيروان » سفينة قديمة المواصفات ايضا ، فركاب الدرجة الاولى معزولون تماما عن ركاب الدرجة الثانية ، أما ركاب الدرجة الثالثة فليس لهم من سبيل الى أي من الدرجتين . .

كان عبدالكريم متمدداً على كرسي قماش طويل في السطح المغطى بمشمع ثخين . انها سفرته الاولى منذ مغادرته المغرب ليدرس في جامعة وهران حيث التقى بابن عمر في النادي مع احد الطلبة المغاربة . يومها وجد عبدالكريم انه احب الشخص الذي يراه لاول مرة ، حباً سببه حديثه الجارح عن مسائل المغرب ، ومعرفته العجيبة بالمدن والناس هناك .

هبات عنيفة من الريح والموج تحمل رذاذاً كثيفاً الى جوانب الدرجة الثالثة ، بحيث اضطر عدد من المسافرين الى مغادرة اماكنهم واللجوء الى وسط القاعة . بينما بدأ عمال « القيروان » بتوزيع البطانيات على المسافرين . كانت الارضية الخشب رطبة الى حد توشك فيه ان تنز ماء .

استسلم عبدالكريم الى دفء البطانية غير المنتظر . كان متعباً . اذ نام متأخراً البارحة ، واستيقظ فجراً ، ليجمع حوائج السفر ، ويصل رصيف الميناء ، فسفينة « القيروان » تقلع الساعة العاشرة صباحاً ، وعليه ان يكون داخلها في الساعة التاسعة ، بعد ان يتم السلسلة الطويلة من اجراءات السفر .

قال لي بن عمر : حين تصل مرسيليا اذهب الى بار روبال ، اول بار تبلغه سائرا عند تقاطع الطرق الاول ، بعد مغادرتك منشآت الميناء مباشرة . سل عن سيدي احمد . قل له ان بن عمر ارسلني . سيدي احمد سوف يدبر امر الرحلة بالقطار من مرسيليا الى المانيا ، وسوف يدلك على من تتصل به في المانيا ، وهناك تعرف كل شيء .

كان وجه عبدالكريم ، خارج البطانية الداكنة ، مثل وجه صبي متعب من

طول اللعب ، وكانت خصلة دقيقة منحدرة على جبينه تكاد تغطي احدى عينيه المغمضتين .

الريح تزداد عنفاً .

و « القيروان » تتعثر في رحلة اخرى مرهقة ، تزيد آلاتها العتيقة تآكلا ، وتمضي بها ، خطوة فخطوة ، عبر البحر المتوسط ، الى أليكانت ، فبرشلونة ، فمرسيليا حيث بار رويال ، وسيدي احمد ، والطريق الطويـل الذي ينتظر هذا الصبي النائم المتعب . .

□

سأل رجل الكمارك في فندق « مرحباً » :

– كم بقي بن عمر في هافانا ؟

فتح موظف الاستعلامات إحدى صفحات الجواز الأول ، وقال ببطء :

– أقل من عام .. من شهر جويلية ١٩٦٥ إلى شهر مارس ١٩٦٦ .

سأل رجل الكمارك :

– والثاني ؟ كم استمرت سفرته ؟

– أكثر من عام .

– هل أقام في فرنسا فقط ؟

تأمل موظف الاستعلامات عدداً من صفحات الجواز الثاني ثم قال :

– أقام فترات في ألمانيا الغربية ويوغوسلافيا .

– ما مهنتاهما ؟

– طـالبان .

كان الشـاي المائل إلى الخضرة . يبـدو أكثر خضرة من حقيقته ، بسبب أوراق النعناع الكثيرة التي تملأ النصف الأعلى من الكأس الصغيرة .. ارتشف رجل

الكمارك رشفة سريعة ثم أعاد الكأس إلى مكانها من مكتب الاستعلامات الذي يشبه حدوة حصان متسعة وقال :

– هؤلاء المغاربة يدبرون رؤوسهم .

سأل موظف الاستعلامات :

– هل تظن الأمر سهلا ؟

نظر رجل الكمارك إلى علبة دخان « الكولواز » الزرقاء المربعة على المكتب . وتناول منها لفافة لم يشعلها ، وإنما ظل يتلمسها بأنامله . كان موضع الاظفر في أحد أصابعه مشوهاً :

– الشعب يدبر .

قال موظف الاستعلامات وهو يضم الجوازين إلى بعضهما ، ويضعهما إلى جانب لوحة المفاتيح :

– إنهما خارج البلاد .

– لا بأس

– ماذا يستطيعان أن يفعلا خارج البلاد ؟

– أين كانت اللجنة السرية وقت الثوره ؟

– في سويسرا .

أشعل رجل الكمارك لفافة الكولواز ، وتنهد قليلاً ، وهو يستمتع بطعم الدخان الثقيل ورائحته النفاذة وهي تملأ تدريجاً القاعة الصغيرة .

□

إحفير – بركان – الناظور .

ثلاث محطات بين وجدة المغربية ، ومليلية الاسبانية . تتجه نحو البحر في خط عمودي . يخترق السهل . أولاً ثم منطقة التلال المتموجة . قبل أن ينحدر سريعاً . نحو الشريط السهلي الضيق على الشاطيء .

إن هذا الخط العمودي الذي يبلغ طوله مائة كيلومتر تقريباً . يحصر إلى شرقه قطاعاً ضيقاً يوازي خط الحدود شبه المستقيم بين المغرب والجزائر . هذا القطاع الضيق الذي يضم مجموعة كبيرة من القرى الزراعية ، يتكون أغلب سكانه من عوائل مغربية - جزائرية ، وقد يقيم عدد من أفراد الأسرة الواحدة في الجانب الآخر من الحدود .

إن سلطات الحدود في كلا البلدين لا يمكنها إلا أن تبدي نوعاً من التساهل تجاه انتقال الأشخاص والبضائع ، شأنها شأن معظم سلطات الحدود ، في مناطق أخرى مشابهة من العالم ، لكن التساهل يختفي أحياناً ، عند حدوث اضطرابات أو أحداث معينة ، وغالباً ما يكون هذا في الجانب المغربي . غير أن التشدد لم يصل يوماً إلى حد إطلاق النار .

أقرب المحطات الثلاث إلى مليلية الاسبانية - حيث يتم الانتقال إليها بالهوية الشخصية ، وأحياناً دون هوية - هي بلدة الناظور الواقعة على شبه خليج . إن الناظور التي تضم عدداً من الفنادق ، ومطاراً صغيراً محاطاً بالأشجار ، وحامية عسكرية في ثكنات من الحجر الجبلي ، وتسهيلات متواضعة لقوارب الصيد المغربية ، والقوارب الاسبانية التي قد تلجأ إلى الخليج أثناء العواصف والطواريء - تعتبر واجهة مغربية أمام المنطقة الاسبانية الملاصقة .

والطريق من « بورساي » إلى « الناظور » ليس سهلاً كما يتصور المرء ، فحين يعبر المرء النهر الفاصل بين « بورساي » والأرض المغربية ، عليه أن ينحدر جنوباً ، ويظل ينحدر ، مخترقاً العديد من القرى والمزارع والتلال المتموجة ، ليبلغ إحفير أو بركان . ومن هاتين البلدتين الصغيرتين ، يبدأ من جديد رحلة نحو الشمال ، بوساطة الحافلات أو سيارات الأجرة ، حتى يصل الناظور .

إن الرحلة إلى الناظور ، عبر إحفير وبركان شديدة البطء إذ أن هذا

الخط العمودي الذي يبلغ طوله مائة كيلومتر تقريباً ، ويمتد بين وجدة ومليلية ، يعتبر منطقة تهريب ، ومنطقة كمركية موحدة ، تنشط فيها الدوريات من كل صنف : دوريات الكمارك ، دوريات الشرطة السيارة ، دوريات شرطة الدراجات النارية . ودوريات الأمن ذات الملابس المدنية المتنوعه

ليس التهريب وحده ، وراء هذه الدوريات . فالمنفيون المغاربة في أوربا . وبربر الشمال ، المهتمون بالسياسة ،ذوو الميول الجمهورية في مدينة « وجدة » هم أيضاً ، وراء هذه الدوريات .

□

في حوالي الساعة الرابعة من عصر الأحد ، عاد المغربيان ، ليواجها موظف الاستعلامات في فندق « مرحبا » .

كان رجل الكمارك الجزائري ما يزال جالساً في القاعة المعتمة .

وضع المغربيان حقيبتي السفر ملاصقتين إلى جانب الحائط أسفل المكتب ، فبدأهما موظف الاستعلامات مستفهماً :

— ألم تسافرا ؟

قال بن عمر : لم نستطع .

نهض رجل الكمارك من كرسي الخيزران ، وخطا خطوتين باتجاه المكتب ، ووضع إحدى يديه عليه ، وقال موجهاً الحديث إلى عبد الكريم :

— هل كنتما في « بورساي » ؟

التفت عبد الكريم إلى رفيقه مستفهماً .

أجاب بن عمر :

— نعم ، ولم نستطع اختراق الحدود .

قال رجل الكمارك :

– أكان ذلك بسبب الجزائريين ؟

– نعم ..

سأل رجال الكمارك :

– أتظن للأمر علاقة بمعاهدة إفران ؟

فكر بن عمر لحظة ، ثم أجاب :

– لا أدري إن كانت هنالك نصوص سرية للمعاهدة تتعلق باللاجئين السياسيين ؟

قال رجل الكمارك :

– إنك تتذكر اتفاقيات ايفيان ..

لم يجب المغربي ، واكتفى بهز رأسه موافقاً .

كان صمت متوتر يسود القاعة الصغيرة : المغربيان ، ورجل الكمارك ، واقفون أمام المكتب ، وهم يبدون عاجزين عن أي شيء ، بينما يتابع موظف الاستعلامات جلسته الثابتة التي تظهره من أمام المكتب ، مثل تمثال نصفي لجندي جزائري شاب من المنطقة الغربية .

أخيراً قال موظف الاستعلامات ، وهو يميل بصدره على حاجز المكتب :

– لم لم تسافرا بوثيقة سفر اللاجئين السياسيين ؟

أجاب بن عمر :

– لأننا نريد البقاء في المغرب .

● معاهدة إفران : بين الجزائر والمغرب .

● اتفاقيات إيفيان : اتفاقيات الاستقلال بين الثورة الجزائرية وفرنسا .

– ألا تستطيعان السفر بها إلى مليلية ، ومن هناك تدخلان المغرب سراً ؟

– سوف يسلمنا الاسپان .

الصمت المتوتر يسود القاعة الصغيرة ، من جديد . لكنه ينقطع فجأة .

كان رجل الكمارك هو المتحدث :

– سوف أصحبكما إلى « پورساي » .

بغداد ١٩٧٢/١٢/١١

ذوو القبضات العالية

« مدام بيجوس تقول انها لم تستطع النـــوم البارحة . تقول ان اصدقاءك الذين سهروا معك كانوا صاخبين ، وبخاصة عازف القيثار . تقول ايضا ان اغنياته لم تعجبها » .

« زهرة » التي يدعونها في محل حلاقة مدام بيجوس « زهريت » تعجبني . انها تصر على التحدث معي باللغة العربية ، تلوك الكلمات . وتلثغ . لكنها تتوصل ، برغم كل شيء ، الى جملة عربية . السواد الفاحم اللامع كان لون شـــعرها وعينيها الواسعتين . وحين تتحدث تأتي كلماتها خفيضة ومليئـة معا ، وكأنهـــا تهمس دائما بالاسرار .

« الشاب الانجليزي الذي كان يغني ، رايته اليوم . التقينا في السلم : كنت صاعدة من محل الحلاقة الى أمي لاتناول قهوة اخرى . قال لي : صباح الخير ، وكادت قيثارته تضربني ، لكنها لمست شعري فقط . اعتذر ضاحكا ، وتابع نزوله » .

الشقة التي اسكنها ، شقة قديمة انيقة الداخل . الا ان خارجها : ـ النافذتين ، والباب ، والستائر الخشبية ، والزجاج العتيق ، وقرميد السقف الناصل ـ يعطيك انطباعا بانك داخل كوخا في غابة . وهي واحدة من ثلاث شقق في الطابق الاول . البناية ذات طابق واحد فقط ـ تطل على حوش فيه مضخة ماء يدوية لم تعد تستعمل بعد ان دخل ماء الانابيب البناية . قرب المضخة المتآكلة كان الباب الخلفي لصالون مدام بيجوس التي تسكن الطابق الارضي ، مع عشيقها العجوز ، واختها .

« اليوم احد . لكنني اعمل . مدام بيجوس تصر على ان اعمل الاحد ، تقول ان النساء يأتين الى المحل ، بكثرة يوم الاحد ، وهي لا تمنحني اجرا اضافيا . اجري الشهري لم يتغير منذ خمسة اعوام . ومساء البارحة تأخرت في المحل حتى الساعة الثامنة . وحين ارتقيت السلم كانت رجلاي تؤلمانني ، أعدت لي امي شاي اعشاب ، فأحسست بشيء من الراحة . . ثم بدأت الاغاني والقيثارة في شقتك ، اردت المجيء الكن امي لم تقبل ، قالت ان الوقت ليل . فوضعت كرسيا قرب نافذتك ، وجلست استمع برغم دخان السجائر المتسلل من النافذة » .

مدام بيجوس تسكن البناية منذ ثلاثين عاما . جاءت المدينة مع اختها الصغرى ، ساقيتين في مشرب بمركز المدينة . كانتا تعاشران في السنوات الاولى ضباط الفرقة الاجنبية من الفرنسيين . وانتقلتا مع مر السنين ، الى اذرع نواب

الضباط ورؤساء المرفاه من الفرنسيين والالمان والكورسيكيين احيانا ، ولم يحدث لهما ، ليلة ما ، ان وجدتا نفسيهما مع غير البيض من افراد الفرقة الاجنبية . . ومع مر السنين ايضا ، كانت المشارب التي تعملان فيها ، تنتقل ، هي الاخرى ، مبتعدة عن المركز . الى الشوارع المتصلة به ، فالضواحي القريبة ، حتى وجدتا نفسيهما اخيرا ، في مشرب يبعد/٥/كيلومترات عن مركز المدينة ، مشرب على نهر صغير يخترق عددا من المزارع ، ويقــــع على الشارع العام الذي تسلكه السيارات المتجهة ، في أمســـيات السبت . دائما الى المغرب ، حيث المنطقة الاسبانية على مبعدة ثلاثمائة كيلومتر فقط . من هذه المنطقة جاء السنيور بيجوس [السنيور الآن] ، عشيق مدام بيجوس ، ولم يعد الى منطقته أبداً . لقد هيأت له السيدة ـ الثرية الآن شيئا ما ـ حياة رخية .

« هل عرفت ؟ شقة سي محمد فرغت . . ذهب سي محمد الى الحي العربي ، لأن زوجته تتضايق من رؤية مدام بيجوس وأختها وهما تقددان لحم الخنازير الذبيحة على السطح . والمفتاح الآن بيـــد مدام بيجوس ، لقد دفعت ايجار الشقة مقدماً ، لمدة عام كامل ، وأغلقتها ، مثلما فعلت بالشقة التي فرغت بالطابق الأرضي في العام الماضي . أكثر مفاتيح البناية الآن بيد مدام بيجوس : صالون الحلاقة ، شقتها ، شقة أخيها ، محل عشيقها الذي يؤطر فيه الصور ويلعب الشطرنج مع روميرو مصلح البنادق . شقة سي محمد ، والشقة المغلقة في الطابق الأرضي » .

امرأة اسبانية ، متوحدة ، في الخمسين ، تسكن البناية ايضا ، في حجرة كبيرة رطبة ذات نافذة واحدة ، بالطابق الارضي . لوبزيت تغســـل المناشف والفوط والصدريات العائدة الى محل الحلاقة ، وتغسل كذلك كلب مدام بيجوس القزم ذا اللون البني . وكل يوم ، في الساعة الثانية عشرة دائما ، حين تأتي

مدام بيجوس بالخبز ، تفتح لويزيت باب حجرتها ، وتنتظر بعينين قلقتين كل يوم تمد مدام بيجوس يدها ، برغيف واحد شـــديد الانضاج ، الى لويزيت المنتظرة عند الباب .

« مرة ، تأخرت ، نصف ساعة ، كانت امي مريضة ، فسهرت الى جانبها حتى ما بعد منتصف الليل . لم تهيء لي قهـــوة الصباح ، طبعا ، ولم اكن اعتدت تهيئة القهوة . ذهبت ذلك الصباح ، مسرعة الى ممرضة نعرفها . شربت معها القهوة . وعدت بها الى البناية . وحين دخلت المنزل مع الممرضة ، وجدتها – مدام بيجوس – تتخاصم مع أمي ، بصوت حاد . كانت امي لا ترد ، وعندما اقتربت من فراشها نظرت الي بعينين دامعتين . تأخرت عن العمل نصف ساعة فقط . أتقدر كم خصمت مني ؟ أجرة نصف يوم ! سأنزل الان الى المحل » .

« زهرة » تدخل السلم المسقوف ، وشعرها اللامع يكاد يلامس السقف المتآكل من الرطوبة . عدت الى شقتي : فتحت النافذة ، ورفعت الستائر الخشب ، كان الهواء المشبع بالندى والكالبتوس يندفع مثل موجة باردة ، محركا الستائر الضيقة الملتصقة بالزجاج ، وعددا من الاوراق المثبتة على الطاولة المستديرة الان ، انا في الشرفة الصغيرة .. الشارع يتطامن اسفل الشرفة ، لامعا ، مغتسلا برطوبة الليل الخفيفة ، وفي الشقة المقابلة ، في الجانب الثاني للشارع ، أرى سي العربي ، يرتدي ملابسه المدنية ، متلكئا ، قرب الهاتف . انه اليوم الوحيد في الاسبوع الذي يرتدي فيه الملابس المدنية .

عندما استدرت مغادرا الشرفة ، رأيت التظاهرة تقترب .

– الى أين تذهبين يا زهريت ؟

– الى الخارج .

– لكن لدينا عملاً اليوم .

– إنه يوم عطلة .

– أوه ... أوه . ! . سأستدعي أمك .

اجتازت التظاهرة الشارع المؤدي إلى وسط المدينة . كانت تظاهرة صغيرة مسرعة ، غير أنها عنيفة ، تردد هتافاً واحداً سريعاً . كان المتظاهرون شباباً ذوي لحى ، وفتياناً لم يلتحوا بعد ، وفتيات غير متأنقات . كانوا يقتربون من شارعنا ، مجتازين وسط المدينة ، حيث المسرح ، والمحكمة ، والأشجار ذوات اللحاء المتجلد . وحين وصلوا إلى محل الحلاقة ، اندفعت فتاة من التظاهرة

زهرة ! زهرة !

دخلت لويزيت شقتي ، لأول مرة ، وهي تمسح يديها بصدريتها الزرقاء .

كانت شبه مذهولة : الحمر ! الحمر ! ذوو القبضات العالية !

– إنني خارجة . مدام بيجوس .

– لكن لدينا عملاً اليوم .

– إن صديقتي تناديني .

– تريدين الذهاب إلى الحمر ؟

– نعم .

– وهل ستعودين إلى المحل ؟

– . . . . . .

القلعة الرومانية

من النافذة يبدو الجبل . كان أعلى من أعلى العمارات ، ملتصق السفح بأشجار متصلة ، تشكل شبه غابة قصيرة القامة .

كان الكرسي المنحرف في آخر المكتب ، يمنحه القدرة على الاستغراق في النظر . وكانت عيناه المتعبتان من وهج الخريف تتأملان هذا الجبل الماثل أمامه ، فجأة ، في طرف بغداد ، قرب سينما الأرضروملي .

فتح النافذة الزجاجية ، وهو ما يزال جالساً .. كان يرسم بأصبعه ، على السماء المغبرة الزرقة ، الدرب الدائر المتسلق إلى قمة الجبل الباردة ، والسحب المتقطعة القريبة من القمة القادمة من البحر الذي يبعد عن الجبل ثمانين كيلومتراً .

تنفس ملء رئتيه هواء الجبل الخفيف .

قال الزاهي محمد : إنها القلعة الرومانية .

إنهما يسيران ، منذ الصباح الباكر يسيران ، لقد انتهت الآن كل علائقهما ، وعلائق ما حولهما ، بالمدينة ، حتى الطريق المعبدة صارت طريقاً حجرية ضيقة ، ينتصب في أولها آخر عمود كهرباء .

انعطفت الطريق الحجرية انعطافة حادة ازدادت فيها ضيقاً . بحيث كان السائران يتفاديان بصعوبة أشواك الأرض - شوكي البري التي تحاصر . مع الأعشاب العالية ، الطريق المائلة الى الارتفاع الآن .

الشمس تضحي اكثر حدة ، وما يزال الدرب الى قمة الجبل طويلا .

قال الزاهي محمد : نستريح هنا قليلا .

أجابه الآخر : كما تريد .

جلسا على صخرتين ، مستندين الى سياج مزرعة . حيث تكون شجرة صنوبر ضخمة جزءاً من هذا السياج ، وحيث كان ديك متكبر يبتعد ، بطيئاً ، عنهما ، ليدخل من ثغرة في السياج إلى الكوخ الحجري ، البناء الوحيد الماثل فيما حولهما .

أخرج الزاهي محمد من جيبه ليمونتين ممتلئتين ، قدم احداهما الى الآخر ، وتناول شوكة من اشواك الأرضي - شوكي البري ثقب بها ليمونته ، وفعل الآخر فعله بمهارة أقل ، ثم شرعا يمتصان الحموضة اللاذعة .

قال الزاهي محمد وهو يشير مبتسماً الى قمة الجبل حيث ترتفع جدران حجرية ذات ابراج محكمة :

- انها القلعة الرومانية .

لم تكن هذه المرة الاولى التي يرى فيها الآخر الجبل وقمته فأينما يذهب المرء ابتداء من وسط المدينة يمكنه ان يرى جبل « تسالة » وقمته الغائمة في

أكثر الأيام وأحياناً حينما يفتح الآخر النافذة الواسعة ويقف في الشرفة تلتقط عيناه ، اول ما تلتقطان ، الجبل وهو يبدو وحيداً غريباً مثقلاً في مثل هذا السهل الزراعي الواسع بين الاطلس البحري والاطلس الوسيط . .

لكنه اليوم مع الزاهي محمد ، كان يحس انه يكتشف الجبل للمرة الاولى وان القلعة الرومانية في قمته سوف تنفتح أمامه بممراتها وأبراجها وجدرانها الحجر ، كما تنفتح باب منزل الزاهي محمد في كل زيارة يقوم بها الى المزرعة التعاونية لقدماء المجاهدين الواقعة على الطريق العام بين سيدي بلعباس وتلمسان .

– لم تبق سوى هذه الدورة .

اصطدما ، بغتة ، بحرج صنوبر صغير ، عندما أكملا الدورة الاخيرة ، وبدت القمة للآخر غير قمة . إنها هضبة محدودة منبسطة ، ذات ود مستغرب .

في الأسفل ، ناحية اليمين ، كانت المزارع خضراً ، صفراً ، بنية ، وسوداً أحياناً . تمتد عبرها خطوط الزيتون والكروم المنتظمة . وفي البعد : سايلو الحبوب ، وقبة السوق المركزي ، وعمارات المدينة . ومن الشمال يستطيع المرء أن يرى طريق السيارات الرئيس الموصل الى وهران ، واضحاً ، ملتوياً بعض الشيء ، حتى « ربو سالادو » حيث يغيم الطريق ، ويتلاشى ، بين أشجار ومزارع الجانبين التي تطبق عليه تدريجاً .

قال الآخر : لنجلس .

جلس الاثنان على الحافة الآمنة لحرج الصنوبر ، وتململ الآخر قليلاً بتأثير إبر الصنوبر التي تغطي الأرض ، ثم استقر في جلسته ، وشعر بالعرق البارد المتصبب على صدره ينشف ، فيغدو أكثر برودة ، مع نسيم القمة . وارتجف ارتجافة لذيذة .

قال الزاهي محمد وهو يغرز عوداً يابساً في طبقة الابر الصنوبرية الهشة :

– نستريح هنا قليلا قبل ان نذهب الى القلعة الرومانية .

– ولكن .. اين القلعة الرومانية ؟

– لا تستطيع ان تراها من هنا .

– أليست في القمة ؟

– بلى . انهـا مختفية وراء تلك الصخرة . التي تعين النصف الثاني من القمة ... حين تنهض وتسير خطوات متجاوزاً الصخرة ترى نفسك داخل القلعة الرومانية .

– الفرنسيون أذكياء .

– ملعونون .

أخرج الزاهي محمد نصف رغيف بيتي سميك قسمه طولياً بسكين صغيرة حادة وناول الآخر قطعة ثم مثلثاً من الجبن الطري .

قال الآخر وهو يقدم الى الزاهي محمد قنينة ماء بلاستيكية صغيرة

– مكان ستراتيجي .

– يستطيع الفرنسيون ان يسيطروا من القلعة الرومانية على منطقة واسعة بين وهران وسعيدة وعين تيموشنت وغليزان ، وهي منطقة تلال خفيفة وغابات . كان في القلعة جهاز مراقبة وإرسال ، يوجه طائرات الهليكوبتر والدوريات التي تتجول ليل نهار .

من هنا يستطيع المرء أن يشرف على كل شيء . انظر !

انظر الى الجسر !

تتبع الآخر يـد الزاهي محمد المتجهة وجهة طريق السيارات الرئيس ، الموصل الى وهران ، حيث يبدو جسر قصير مقام على جدول .

- انظر . إلى ما تحت الجسر ! أترى شيئاً ؟
- طفلاً يصطاد السمك !
- الفرنسيون ملعونون .

الأبراج الأربعة التي تعلو سور القلعة المربع عند كل زاوية من زواياه ، ما تزال موجودة ، وإن بدأت تتخذ صورة الآثار التي لعبت يد الصيانة دوراً ملحوظاً في الحفاظ عليها . أما السور المنخفض فيشكل حاجزاً صعب الاقتحام بسبب الانحدار الحاد للجبل والأشجار المحروقة ، هذه التي أخذت تنمو الآن من جديد .

في القلعة اربع قاعات طولية مبنية بالحجر والاسمنت ، وساحة العرصات الصغيرة التي تتوسطها قاعدة الصارية مرصوفة بالحجر الجبلي أيضاً . حتى الممرات الضيقة ما تزال ظاهرة بين صفي الحصى الغليظ الذي فقد الآن طلاءه الابيض .

اقترب الزاهي محمد من البرج الغربي وقال :

- كنت مكلفاً بهذا البرج .

كانت فرقتنا مكونة من ستة عشر جندياً بينهم سي قدور وهو المسؤول عن العملية . وكانت الخطة ان يصعد اربعة منا الى القلعة ليلا كل واحد من ناحية ويكمن ثلاثة أسفل كل برج من الابراج الاربعة خارج القلعة في المنحدر متشبثين ببقايا الاشجار المحروقة . حين يصعد الاربعة ويأخذون مكامنهم قرب الابراج يلقي كل واحد منهم قطعة حصى غليظة خارج سور القلعة قريباً من البرج . وحين يتجه الحارس نحو مصدر الصوت يتلقى طعنه من الخلف . آنذاك نقوم بتسلم الاسلحة والتجهيزات التي استولى عليها رفاقنا ونبتعد عن القلعة ولا يتخلف عنا إلا سي قدور ليرافق الاربعة الباقين .

هكذا كانت الخطة .

وفي ليلة العملية تطوعت مع ثلاثة جنود واحد منهم يوسف صاحب مطعم « الواحة » ، لنكون الصاعدين الى القمة . رفض سي قدور أن يكون يوسف من بيننا قال انه ما زال صغيراً وقد يتردد في توجيه طعنة مميتة او يضطرب لحظة توجيهها . أخيراً قرر سي قدور أن يكون هو أحد الاربعة . كلف يوسف بانتظارنا. كانت أصعب المراحل في مهمتنا مرحلة اختراق المنطقة لنصل إلى بقايا الأشجار المحروقة في المنحدر أسفل القلعة ، فدوريات الفرنسيين كانت منتشرة في المنطقة ، ليل نهار . طبعاً في العودة تكون المسألة أسهل ، لأننا سنحصل على أسلحة نقاتل بهـا هذه الدوريات .

تمت العملية ، ونجونا بجلودنا والأسلحة . ربما لأننا من القرى القريبة . ربما لأن سي قدور تعلم هذه الأمور عندما كان في الفيتنام .

لم تطلق حتى رصاصة واحدة .

إنني ما زلت أحتفظ بشيء من تلك العملية .

أخرج الزاهي محمد السكين الصغيرة الحادة من جيبه وقال :

كانت في جيب الحارس .

□

عندما بلغا الكوخ ، عند التقاء الطريق الحجرية ، بالطريق المعبدة ، بعد هبوطهما من القلعـة الرومانية ، كان الآخر متعباً جداً ، لكن الزاهي محمد لم يقترح شيئاً ، وإنما استمر في مشيته الواثقة ، منعطفاً نحو الطريق المعبدة . كان صامتاً معظم الوقت الذي مر عليهما ، وهما ينحدران من القمة .

بعد مسيرة ربع ساعة ، بلغا النبع المتدفق ، هادئاً صامتاً ، بين صفصافات ضخمة مرتوية الاوراق الى جانب الطريق .

قال الزاهي محمد : لنشرب ،

حين جلس على حافة النبع مدلياً قدميه العاريتين في مجرى الماء المترقرق عن حصى أسود وبني أحس بعضلات رجليه ذائبة رخية كالعجين . ود لو بقي حتى المساء في جلسته هذه .

التفت اليه الزاهي محمد قائلا :

– لم يدفعوا اجورنا منذ شهرين . الجنود الذين يعملون معي في المزرعة أرسلوني لمقابلة الوالي لكنه رفض . إنه يكره الجنود .

– لم لا تذهبون الى الحزب ؟

– إنهم بورجوازيون كانوا جميعاً في المغرب .

الجبل الماثل في طرف بغداد عند سينما الارضرومي يختفي تدريجاً في السماء المغبرة الزرقة بين السقوف المسطحة والعمارات الوطيئة والشجر القمي .

وأحس بنوع خفيف من التشنج في رقبته فعدل كرسيه ودبر لنفسه جلسة أكثر راحة .

الحية

– يا سعدي !

– ؟

إنه صوته بلا شك ، صوته هو بمخارج حروفه الصافية ، ونعومته ، ووقاره المبكر ، ومرحه . زيد بن صقر ، رجل في الثانية عشرة . إن عينيه تطلان حتماً ، الآن ، من الباب الصغير المثبت في الباب الكبير ، عينيه السوداوين حتى التفحم ، اللامعتين حتى الماس .

ما الذي يريده مني زيد بن صقر في هذه الساعة المبكرة ؟

الدوام يبدأ بعد ساعتين ، وأستطيع أن أنام ساعتين إلا ربعاً ، مستنفداً بقايا الفجر الصحراوي البارد .

فتحت عيني بعدم إخلاص .

كان الشعير الأخضر الذي زرعته حين بدات أولى الأمطار تزور ساحة البيت الرملية ... يهتز ، والبئر المرة في الجانب الأيمن من البيت ما تزال مغطاة بقطعة الخشب ذات الحروف اللاتينية السود الكبيرة . كانت النسمات باردة حقاً . وأغمضت عيني .

– يا سعدي !

– . . . .

غمغمت ، وعيناي ما تزالان مغمضتين : ما الذي يريده زيد بن صقر ؟ ما الذي يريده في هذه الساعة ؟

حين جئت هذه القرية قبل ستة شهور ، كان زيد بن صقر أول من تحدث إلي . لقد وصلت القرية ظهراً ، وكنت أبحث عن بيت المدير ، بعد أن وجدت المدرسة مغلقة وراء باب حديد تنفتح عليه حديقة صغيرة شاحبة الخضرة . وكان الشارع خالياً ، إلا من الشمس ، والريح ، والرمل ، والجدران غير المصبوغة ، والسيارة ، والسائق ، وحقيبتي ، ونظراتي القلقة . وفجأةً رأيت زيد بن صقر ، أمامي ، مبتسماً ، يلهث قليلاً . كان وجهه أقرب إلى الطول ، وكانت كوفيته شديدة البياض ، تعطي وجهه شيئاً من استدارة . لقد هبط زيد بن صقر من الجدار بخفة طائر ، مثيراً غيمة صغيرة من الغبار .

– أعراقي أنت ؟

– نعم .

– أنا زيد بن صقر .

– نعم .

– وأنت ؟

– سعدي .

– المدير ما هو بالدوغة .

– وين راح ؟

– هو وجماعته راحوا بالسيارة .

– متى يرجعون ؟

– طلعوا للقنص .

ولا أدري كيف اختطف زيد بن صقر حقيبتي من السيارة ، راكضاً بها . إلى أقرب بيت .

وحينما عاد إلي كان يضحك بنعومة ، فارغ اليدين : المدير بالبيت يسلم عليك .

– يا سعدي !

– . . . .

– يا سعدي !

وأغمضت عيني . شعرت بالوسادة صلبة ، فمسدت عليها قليلاً ، كانت هبات النسيم ما تزال باردة . وكنت أحس بصفاء وهدوء لا حد لهما ، وبهبات نسيم باردة على جبيني . وفتحت عيني حانقاً . ما الذي يريده مني زيد بن صقر ؟ ما الذي يريده هذا اللعين ؟ ونظرت إلى ساعتي، وعيناي نصف مغمضتين .

لقد بقيت ثلاثة أرباع ساعة على بدء الدوام . فكرت بالنهوض من الفراش ، والذهاب إلى الباب ، حيث يقف زيد بن صقر منادياً . كانت النسمات الباردة ما تزال تهب ، وجبهتي التي بدأ العرق ينبت فيها تشمل ببرودة نادرة ، وكنت مسترخياً ، أشعر بصفاء ناعم ، بارد ، مثير ، مسكر .

حدثني زيد بن صقر مرة عن القنص ، قال لي إنه يذهب مع أبيه وأشقائه كثيراً إلى القنص ، ومع أنه يحب طرد الغزلان إلا أنه يحب أيضاً اقتناص

حيوانات صحراوية أخرى ، وخاصة الضب . إنه يعرف الطريقة ، ويكتشف بسهولة ، مكامن الضب ومساربه .

جاءني بضب يوماً ، وفي اليوم التالي جاء بضب ثان ، فثالث ، فرابع . حتى أصبحت ساحة بيتي الرملية مزرعة للضباب ، وحتى فكرت جدياً ، بأن أؤلف كتاباً عن عادات هذا المخلوق الأصفر القاسي .

– يا سعدي !

– . . . .

– يا سعدي !

كان صوت زيد بن صقر يخزني كابرة حادة .

وقفزت غاضباً من الفراش ، وأسرعت راكضاً إلى الباب ، وهناك كان زيد بن صقر ، يبتسم ماكراً ، ويداه خلف ظهره .

– ماذا تريد يا زيد ؟

وفجأة . انطلقت يداه من وراء ظهره . ونظرت مرتعباً إلى التماع جلد الأفعى القريب من الصفرة . كانت الأفعى تحاول الالتفاف على يده اليمنى الممسكة بالرأس المثلث ، بعد أن أطلق ذنبها من يده اليسرى :

– لقد اقتنصت لك هذه الحية !

١٩٦١/٩/١١

القصص

إشـــارات

- كتبت القصص الست الأولى بين أواخر ١٩٧٢ وأوائل ١٩٧٣ .
- الحية : كتبت عام ١٩٦١ .
- نافذة في المنزل المغربي : عنوان إحدى قصائدي في « بعيداً عن السماء الأولى » .
- المقطع الشعري في أول المجموعة ، من قصيدة :
  « أوراق من ملف المهدي بن بركة » .



الثمن ٥ ل٠ل٠ أو ما يعادلها